صورة الماء وتوظيفها في القصيدة العباسية

د. زينب عبد الكريم حمزة

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

The water image and its employment in the Abbasid poem

Dr. Zainab Abdul Karim Hamza

University of Mustansiriya / College of Arts

Abstract

Nature is the poetry that represents nature or some of what it included, and nature varies according to the poet's vision of the environment in which he lives, the feeling of nature consists of (physical and moral sources) material sources is nature in all that whether this nature is alive as humans, animals and plants, Such as the earth, sky, mountains and other assets lacking the element of life, and moral sources of nature include beliefs such as the Koran and issues of jurisprudence and Quranic stories and Hadith, and science and phenomena, and Arab proverbs and governance, and historical legacies, it is worth mentioning that these assets in most of the neighborhood Share with each other to form a clear picture.

الملخص

شعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه، وتختلف الطبيعة تبعاً لرؤية الشاعر لبيئته التي يعيش فيها، فشعر الطبيعة يتكون من (مصادر مادية ومعنوية) المصادر المادية هي الطبيعة بكل ما فيها سواء أكانت هذه الطبيعة حية كالإنسان والحيوان والنبات، أو جامدة كالأرض والسماء والجبال وغيرها من الموجودات المفتقرة عنصر الحياة، أما المصادر المعنوية للطبيعة فتشمل العقائد كالقرآن الكريم والمسائل الفقهية والقصص القرآني والحديث النبوي، والعلم وظواهره، والأمثال العربية والحكم، والموروثات التاريخية، وجدير بالذكر أن هذه الموجودات في أغلب الأحيان تشترك مع بعضها البعض لتكوين الصورة الواضحة.

مقدمة:

كان شعر الطبيعة أصيل عند الشعراء العباسيين وهذا نتاج طبيعي لتلك البيئة الصحراوية التي كانوا يعيشون بها، فاتخذ الشاعر من البيئة مصدر الإلهام وفُتن بجمالها، وأخذ يُعبر عن حبه لها في أصدق التعبيرات، ويتأمل فيها، ويبثها آلامه، وينسى عندها أحزانه، ويحبها، ويفتن بها، كما امتثلتها نفسه ويستمد منها وحي الشعر، فالطبيعة ملهمة الفنان، ومصدر الوحي، ومنبع الإلهام.

وشعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه، وتختلف الطبيعة تبعاً لرؤية الشاعر لبيئته التي يعيش فيها، فشعر الطبيعة يتكون من (مصادر مادية ومعنوية) المصادر المادية هي الطبيعة بكل ما فيها سواء أكانت هذه الطبيعة حية كالإنسان والحيوان والنبات، أو جامدة كالأرض والسماء والجبال وغيرها من الموجودات المفتقرة عنصر الحياة، أما المصادر المعنوية للطبيعة فتشمل العقائد كالقرآن الكريم والمسائل الفقهية والقصص القرآني والحديث النبوي، والعلم وظواهره، والأمثال العربية والحكم، والموروثات التاريخية، وجدير بالذكر أن هذه الموجودات في أغلب الأحيان تشترك مع بعضها البعض لتكوين الصورة الواضحة.

فنجد أن الشاعر العربي القديم قد أدرج كل ما يحيط به من كائنات واستلهم كل ما يعرفه من موروثات وأحاديث وأمثال وحكم، ليكون لنا في النهاية صورة فنية مليئة بالعبارت الجمالية التي تصف ما يقصده وتدل على مدى تقدمه آنذاك.

بالإضافة إلى أنه كان يستلهم من مصادرها الحية والمعنوية صورا فنية وألوانا بديعية للوحة المائيات، فدراسة الطبيعة تعطي ملامح عامة لأهم السمات المشتركة الجامعة لكل الشعراء، والأخرى الفردية المتعلقة بكل شاعر مما تشكل نموذجا لمعجم شعري مشترك وخاص.

المبحث الأول

المصادر المادية:

تضم المصادر المادية الطبيعة بكل ما فيها سواء أكانت هذه الطبيعة حية كالإنسان والحيوان والنبات، أو جامدة كالأرض والسماء والجبال وغيرها من الموجودات المفتقرة عنصر الحياة.

فجميع تلك الموجودات سواء كانت حية أو جامدة، فإنما تدل على المصادر المادية أو الطبيعة بكل ما فيها، وجدير بالذكر أن هذه الموجودات في أغلب الأحيان تشترك مع بعضها البعض لتكوين الصورة الواضحة.

المطلب الأول

الطبيعة الحية

لقد تأثر الشعراء العباسيين بالطبيعة وبالموجودات والكائنات الأخرى، فقاموا بوصف النباتات باختلاف أنواعها وألوانها، وأيضا اتخذوا من صفات الإنسان وطبيعة الحيوانات صوراً فنية وتعبيراتٍ جمالية لتزيين لوحة المائيات.

الفرع الأول

الإنسان

يحتل العنصر البشري (الإنساني) المكانة الأولى بين سائر المخلوقات، فهو اسمى وأفضل الموجودات جميعاً، وقد سخر الله كل شيء لخدمته وراحته، وفي الحياة الأدبية نجد أن الشعراء اهتموا به اهتماما بالغاً، وعبروا في لوحة المائيات عن صفاته كالبكاء والضحك والخجل والغيرة والابتسام والوفاء والغدر وغيرها من الصفات [١].

من شعراء لوحة المائيات (أبو عثمان سعيد الخالدي) فقد صور البرق بشدة اشتياقه للمحبوبة، وشبه قطرات المطر بدموع العاشق الولهان، ونجده في هذه الأبيات قد استخدم لغة الحوار القائمة على تبادل الأدوار، فقال:

أما ترى البرق يا من قلبه قاس *** كأنه أنا مقياسا بمقياس

قطر كدمعي وبرق مثل نار جوي *** في القلب مني وريح مثل أنفاسي[٢]

واستخدمت صفات الإنسان في الرثاء، فنجد (ابن سنان الخفاجى) عبر عن حزنه في رثاء جماعة من أهله وأصدقائه بتعبيرات فنية كالحزن والبكاء، والزفير دون الشهيق، ليدل على حزنه الشديد على فراقهم، فقال:

أيها الظاعنوان لازال للغيث *** رواح عليكم و بكور

لست أرضى بالدمع فيكم فهل *** يملك ري البحور إلا البحور

بان ذل الأسى عليها فللغيث *** بكاء وللنسيم زفير [٣]

أما في المدح فقد جمع (البحتري) بين الصفات المتضادة كالضحك والبكاء، وظهر هذا في مدحه (أبي سعيد الطائي) فقال:

(١) د/ علي أبو زيد: فنيات التصوير في شعر الصنوبري، ص ٢٧٤.
(٢) الخالديان: ديوانهما، ص ١٣٥.
(٣) ابن سنان: ديوانه، ص ٩٠، وانظر ص ١٤٠.

أخذت ظهور الصالحية زينة *** عجبا من الصفراء والحمراء

نسج الربيع لربعها ديباجة *** من جوهر الأنوار بالأنواء

بكت السماء بها رزاز دموعها *** فغدت تبسم عن نجوم سماء

ما للجزيرة والشام تبدلا *** بك يا ابن يوسف ظلمة بضياء

نضب الفرات وكان بحراً زاخراً *** وأسود وجه الرقة البيضاء[١]

ونجد أن (أبو نواس الحسن بن هانى) قد رسم لوحة للمائيات تجمع بين صفات الإنسان كالخجل والخوف والعصيان، والطبيعة كالسحاب والمطر، فقال في مدح (العباس بن الفضل بن الربيع):

إلى أبي الفضل عباس وليس إلى *** هذا ولاذا دعت نفسي دواعيها

إن السحاب لتستحي إذا نظرت *** الي نداه فقاسته بما فيها

حتى تهم بإقلاع فيمنعها *** خوف العقوبة في عصيان ناشيها

وطء الربيع ووطء الفضل ما افترشا *** من المكارم إذ شاد معاليها[٢]

أما (عبد الصمد بن المعذل) فقد تأثر بقول (هنري برجسون) الذي يري أن الإنسان حيوان ضاحك، وقد شبه الضحك والابتسامة بالبرق، حيث قال[٣]:

مرعت ولازلت تصوبك ديمة *** يجود بها جون الغوارب أقمر

كان ابتسام البرق في حجراته *** مهندة بيض تشام وتشهر[٤]

في لوحة أخرى نجد أن (الصنوبري) صور الزواج وهو أحد عناصر الحياة الاجتماعية الإنسانية، بمزج الخمر والماء، فقال:

هاتها هات بالكبير الكبير *** يوم شمس في عقب يوم مطير

زوج الماء فيه بالقهوة البكر *** وكان النثار مسن منثور [١]

(١) البحتري: ديوانه، ص ٧٢٩.
(٢) أبو نواس:ديوانه، ص ٤٦ ٤ -٤٦٥.
(٣) هنري برجسون: الضحك، ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ م، ص ١.
(٤) عبدالصمد عبد المعذل: ديوانه، ص ٨٩.

أما (السري الرفاء) فقد اتخذ الملابس وهي أحد عناصر الحياة الحضارية الإنسانية، صورة تعبيرية عن الجسر الذي يعلو النهر، فقال:

كأنما الجسر فويق الماء *** وسفنه جانحة الأفياء

شبه الطراز لاح في الرداء *** كأنه في خلع الظلماء

دهم من الخيل على رواء [٢]

قال (أبو عبادة الوليد البحتري) في تصويره لوحة المائيات لمحبوبته:

كأنما الدرة ماء وجهه *** وجسمه أحسن من ماء الذهب

انظر إلى آثاره عند اللهي *** تنظر إلى آثار غيث في عشب[٣]

بينما (الصنوبري) اتخذ من الفرح والعبوس والحياء صوراً في لوحته، حيث يقول:

ووجه فاض ماء البشر فيه *** فأطفأ ماؤه نار العبوس

ألذ من الفرات العذب طعما *** لدى متطعم الريق المسوس

متى تسلسل فطل في رياض *** وإن تخشن فنار في يبيس[٤]

أما (علي بن الجبهم) فقد تخيل الرياح وهي تزج السحاب كالعروس التي تقودها عجوز إلى عرسها، فقال:

وسارية ترتاد أرضا تجودها *** شغلت بها عيناً قليلاً هجودها

أتتنا بها ريح الصبا وكأنها *** منه فتاة تزجيها عجوز تقودها

تميس بها ميسا فلا هى إن ونت *** نهتها ولا إن أسرعت تستعيدها

إذا فارقتها ساعة ولهت بها *** كأم وليد غاب عنها وليدها

فلما أضرت بالعيون بروقها *** وكادت تصم السامعين رعودها

وكادت تميس الأرض إما تلهفا *** وإما حذاراً أن يضيع مريدها

(١) الصنوبري: ديوانه، ص٢٩٧.
(٢) السري الرفاء: ديوانه، ص ٢٩٧.
(٣) البحتري: ديوانه، ص ١٥٥.
(٤) الصنوبري: ديوانه، ص ١٦٣.

فلما رأت حر الثرى منعقداً *** بما زل منها والربى تستزيدها

وأن أقاليم العراق فقيرة *** إليها أقامت بالعراق تجودها[١]

وقد شبه (ابن سنان الخفاجى) لوحة مائيات المطر بالإنسان الذي يشكو الظمأ لكف محبوبته، فقال:

فازور من وقع القنا بلبابه *** وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى *** ولكان لو علم الكلام مكلمي[٢]

ويقول أيضا (ابن سنان الخفاجى) في وصف المطر:

وجاوده الغيث جهلا به *** فلما راي جوده ما همي

الفرع الثاني

الأشجار والنبات

لم يستخدم الشعراء العباسيين النبات في صوراً كثيرة، على الرغم من كونه دليلاً على قيمة إحياء الماء لمظاهر الحياة، فنجد أن (البحتري) قد صور الماء التي تظهر بين الطحالب والمجاري المائية للتفريق بين الصبح والليل الدامس، فقال:

حتى تجلى الصبح في جنباته *** كالماء يلمع من وراء الطحلب [٣]

وفي المدح نجد أن (ابن الرومي) قد شبه كرم (إسماعيل بن بلبل) بالمطر الذي يبدل بقاع الأرض بالورود، حيث قال:

وكفين تستحي السماء إذا رأت *** رفودهما في ضنها برفودها

فجاءت سماء الله جوداً غدت له *** عقيم بقاع الأرض مثل ولودها [٤]

سيقتنا ومرعانا فردت وأفضلت *** لدجلة فضلا فاغدت في ورودها [٥]

الفرع الثالث

الحيوان

اتخذ شعراء العصر العباسي الحيوانات بمفرداتهم وسلوكهم وصفاتهم وشكلهم صوراً تعبيرية في لوحة المائيات، فنجد أن (البحتري) شبه صبره في تعوده على سلوكيات صديقه بالضب في الماء، حيث قال:

(١) علي بن الجهم: ديوانه، ص ١١٣ – ١١٤.
(٢) عنترة بن شداد: ديوانه، قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٩٤.
(٣) الصنوبري: ديوانه، ص ١٠٤.
(٤) البحتري: ديوانه، ص ٨٠.
(٥) ابن الرومي: ديوانه، ٢١٣/١.

أغرك أني قد تصبرت جاهدا *** وفي النفس مني منك ما سيميتها

سأصبر صبر الضب في الماء او كما *** يعيش بديموم الصريمة حوتها [١]

ونجد أن (أبو الطيب المتنبي) قد ربط بين قدرة الحوت والضفدع على شق ماء البحار، وبين محبوبته التي لا تشق لها الماء، فقال:

وليسي كبحر الماء يشتق قعره *** الي حيث يفنى الماء حوت وضفدع

أبحر يضر المعتفين وطعمه *** زعاف كبحر لا يضر وينفع [٢]

وفي صورة أخرى نجد (ديك الجن الحمصي) قد شبه انتفاض القطاة حين ترى الماء وتهز جناحيها، بخفقان قلبه حين يرى محبوبته، فقال:

ولي كبد حري ونفس كأنها *** بكف عدو ما يريد سراحها

كان على قلبي قطاة تذكرت *** على ظمأ ورداً فهزت جناحها [٣]

وقد استخدم (بشار بن برد) الرياح والمطر صوراً في مدحه لروح ابن حاتم، حيث قال:

ولي كبد حري ونفس كأنها *** صيد المحيل من الاصايد

وإذا الرياح تروحت *** مقورة جسد المقاحد

و تناوحت شعب الذنا *** ب ولم تجد عوداً بعاضد

مطرت سحائبه عليك *** من الطرائف والتلائد

خللاً ومعلمة الوجو *** ه وكالظباء من الولائد

فاظفر بحظك من أخ *** متدفق الشربات ماجد [٤]

وقد شبه (الصنوبري) القمر بالأم الحانية التي يرتمي في أحضانها ويبكي من شدة حزنه، حيث قال في رثائه لابنته:

سأبكي ما بكى القمري بنتي *** ببحر من دموعي بل بحور

(١) المصدر السابق، ص٣٨٩.
(٢) المتنبي: ديوانه، ١ / ١١٩.
(٣) ديال الجن: ديوانه، ١٦٣.
(٤) بشار بن برد: ديوانه، ٢/ ٢٥٠، ٢٥١.

المطلب الثاني

الطبيعة الجامدة

يقصد بالطبيعة الجامدة الموجودات التي تفتقر عنصر الحياة كالأرض والسماء والجبال وغيرها، وقد اهتم بها غالبية الشعراء العباسيين واعتبرونها أحد مظاهر الحياة الحضارية، فنجد (بشار بن برد) يخاطب الحمامي الذي منعه من الغسل في الحمام الشعبي، فقال:

منعت الغسل في الحمام *** والغسل له عادة

وما أحوجني صاح *** إلى حمام حمّاده

قضاها الله من مسك *** ومن عنبرة غاده

أردت..... فثنا *** نى الحساد والذادة

ودون لقائها ليلاً *** أسود الجن والسادة

وعين الصقر ترعاني *** وتلك العين رقادة

فلست لها بمعتاد *** وليست لي بمعتادة

دنا أجلي وما أسلو *** وما يلقى مع الذادة [١]

أما (عرقلة الكلبي) فقد اتخذ أنابيب الحمام الشعبي التي بناها صلاح الدين الأيوبي رمزاً للكرم والعطاء ، فقال:

يا داخل الحمام هنئتها *** دائرة كالفلك الدائر

تأمل الجنة قد زخرفت *** و غمرت للملك الناصر

كأنما فيض أنابيبها *** نداه للوارد والصادر [٢]

وفي المدح صور (عبد الصمد بن المعذل) عطاء ممدوحه بماء الورد والعنبر، حيث قال:

يمبح ثراها فيه عفراء جعدة *** كأن نداها ماء ورد وعنبر

(١) بشار بن برد: ديوانه، ٣/ ٦١، ٦٢.
(٢) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص ٥٢، ٥٣

وإني إلى صحن العذيب لتائق *** وإني إليه بالمودة أصور [١]

وفي صورة أخرى شبه (عبد الله بن المبارك) السفينة التي لا تجري على اليابس كمن يدنس دينه ويتمنى النجاة، فقال:

ما بال دينك ترضى أن تدنسه *** وثوبك الدهر مغسول من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها *** أن السفينة لا تجري على اليبس [٢]

وفي المدح اعتبر (أبو الطيب المتنبي) السجن صدفة ومدح سجينه في صورة خيالية، حيث قال:

كن أيها السجين كيف شئت فقد *** وطنت للموت نفس معترف

لو كان سكناي فيك منقصة *** لم تكن الدر ساكن الصدف [٣]

وقد اتخذ الشعراء العباسيين من الماء مصدراً لكثير من الصور في لوحة المائيات، فمنها خُلق كل شيء ولا يمكن الاستغناء عنها، وشبه (بشار بن برد) محبوبته بالماء في قوله:

آليت لا أسلي لى مودته *** لو ما تسلى الماء شاربه [٤]

أما (ابن المعتز) فقد شبه اهتزاز الماء بالمحبوبة وهي تهتز حين تمشي، فقال:

لي قارح يجتاب في ظلم الوغى *** متقدما ويجوب بي ظلم الدجا

يهز قطراه به في مشيه *** كالماء هزت متنه ريح الصبا [٥]

واتخذ الشعراء العباسيين النهر كرمزاً للعطاء والكرم، فعطاء الممدوح كعطاء النهر، فيرى (أبو نواس) أن عطاء ممدوحه يفوق عطاء النيلين (نيل مصر ونيل العراق)، فقال:

فلو أني قلت أو آليت *** يوماً قلت حقاً

ما ترى النيلين إلا *** من ندى كفيك شقا [٦]

وأيضا (بشار بن برد)[٧]، و(ابن الرومي)[٨] كانوا يستخدمان النهر كرمزاً للكرم والعطاء في لوحاتهم المائية.
أما البحر فقد اختلفت نظرة الشعراء العباسيين له، فنجد أن (عبد الله بن المبارك) يرى أن الموت كالبحر الطافح، فقال:

(١) عبدالصمد بن المعذل: ديوانه، ص ١٢٠.
(٢) عبد الله بن المبارالف: ديوانه، ص ٨١.
(٣) المتنبي: ديوانه، ١٠ / ١٨٩، ١٩٠.
(٤) بشار بن برد: ديوانه، ٢٠/ ٢١٨.
(٥) ابن المعتز: ديوانه، ١٥٢/٢٠.
(٦) أبو نواسي: ديوانه، ص ٤٩٢.
(٧) بشار بن برد: ديوانه، ٣/ ٢٩٧.
(٨) ابن الرومي: ديوانه، ٢٦٠/١٠.

الموت بحر طافح موجه *** يذهب فيه حبله السابح [١]

أما (الوأواء الدمشقي) فقد شبه بر الهوى بالبحر المميت، ويوم الهوى يمر كالشهر وهذا دليل على كثرة عذاباته، فقال:

وبـر الهـوى بحر *** ويوم الهوى شـهر [٢]

واتخذ الشعراء العباسيين البحر رمزاً للكرم، فنجد (عبد الصمد بن المعذل) يرى أن مكارم البحر تفنى قبل أن تفنى مكارم ممدوحه، فقال:

البحريفنى و لا تفنى مكارمه *** والقطر يحصى ولا تحصى عطاياه [٣]

أما (ابن سنان الخفاجى) فقد شبه ممدوحه بالبحر، حيث قال:

وما كنت لما أعرض البحر زاخرا *** أقلب طرفي في جهام السحائب [٤]

وقال في تشبيه ممدوحه بالبحر الذي يغنيه عن ماء المطر:

آثار جودك غير خافية *** لا ابحر ينكرها ولا المطر [٥]

وقال أيضا أن البحر يفوق طلب السائلين:

يوفي على طلب العفاة نواله *** كالبحر يغرق فيه قعب المانح [٦](*)

أما (علي بن الجهم) يرى أن عطاء ممدوحه لا حدود له أما البحر محصور، فقال:

قال وأين البحر من جوده *** قلت ولا أضعافه أبحر

البحر محصور، له برزخ *** والجود في كفيه لا يحصر [٧]

أما (أبو عبادة الوليد البحتري) في مدحه (الفضل بن إسماعيل الهاشمي) وتشبيهه بالبحر في كرمه وعطاءه، استثني البحر لشدة ملوحته وعوض عنه بعذوبة النيل، حيث قال:

وشمائل كالماء صفق برده *** برضاب صافية الرضاب شمول

وكذالك أنت البحر ثم تكون في *** كرم العذوبة مشبها للنيل [١]

(١) عبدالله بن المبارك: ديوانه، ص ٧٩.
(٢) الوأواء الدمشقي: ديوانه، ص ١١٩.
(٣) عبدالصمد بن المعذل: ديوانه، ص ١٩٣.
(٤) ابري سناري: ديوانه، ص ٤٦
(٥) ابري سناري: ديوانه، ص ٤٦
(٦) ابن سنان: ديوانه، ص٥٨.
(*) في الديوان المانح وأرى أن الأدق المانح وهو طالب العطاء، لمواءمة المانح لشيمة الكرم، لأن سقوط القعب من المانح فيه ما يوحي بالبخل.
(٧) على بن الجهم: ديوانه، ص١٢٨.

وقد استخدم الشعراء العباسيين السحاب أو المطر للدلالة على الجود والعطاء والكرم، فنجد (ابن سنان الخفاجى) في مدحه (أسد الدولة عطية بن صالح بن مرداس) يقارن بين السحاب بما تحويه من مطر و بين كثرة عطايا ممدوحه، فقال:

لاموك في بذل النوال وإنما *** شرف الغمام بما جرى من مائه [٢]

وجعل السحاب ردفا لممدوحه في كرمه، فقال:

جرى سابقا في حلبة الجود وحده *** وقال العدى كان السحاب له ردفا [٣]

وربط بين لمعان الغيث وكرم ممدوحه، فقال:

يدل على جوده بشره *** وما لمع الغيث إلا هتن [٤]

ورسم كشاجم صورة خيالية في لوحة المائيات، فتخيل أن السحابة البيضاء حين يخالطها شفق الغروب يصبح لونها مشرقاً، فقال:

كالموج يسمو إن علوت به *** شرفا وفي الوهدات كالزئبق

كالمزنة البيضاء خالطها *** شفق الغروب فلونها مشرق [٥]

ونجد (ابن سنان الخفاجى) في رثائه لوالدته، فضل أن يسقي قبرها بدموعه بدلاً من المطر، حيث قال:

وسقتك أجفاني فانت بمعزل *** عن أن يتاح لك السحاب الهمع [٦]

ويصف (بشار بن برد) حامد القول من قبل أن يفهمه، بالسيل التي تسبق نزول المطر، فقال:

يا حامد القول ولم يبله *** سبقت بالسيل انهلال السحاب [٧]

المبحث الثاني

المصادر المعنوية

إذا كان الواقع المادي يمثل جانبا من جوانب الروافد أو المصادر التي يستمد منها الشاعر صوره، فلاشك أن الفكر المجرد أو الغير مادي يمثل جانباً أكبر وأعظم خطرا من الجانب المادي. لأن أيدلوجية الإنسان هي القوة الدافعة أو المحركة له.

لذا يرى عمر الدقاق[٨] أن العنصر الآخر في تشكيل الصورة هو الفكر، ونقصد به كل ما له علاقة بأيدلوجية الفنان أو كل ما له علاقة بأفكاره أو أفكار غيره التي يطرحها داخل العمل.

(١) البحترى: ديوانه، ص١٦٥.
(٢) ابن سنان: ديوانه، ص ٣٣.
(٣) المصدر السابق: ص ١٥٠.
(٤) المصدر السابق: ص ٢٢٢.
(٥) كشاجم: ديوانه، ص ٢٨٩.
(٦) ابن سنان: ديوانه، ص١٣٣.
(٧) بشار بن برد: ديوانه، ٢٧٧/٢.
(٨) عمر الدقاق: الصورة الفنية، مجلة بحوث حلب، العدد التاسع، ١٩٨٦م، ص٦٧.

المطلب الأول

الموروث التاريخي

قد تجسدت صورة الموروث التاريخي للعصر العباسي في لوحة المائيات من خلال موقفين:

- الموقف الأول هو منع الحسين بن علي رضي الله عنهما الماء أثناء حربه مع الأمويين في موقعة ألطف، وقد عبر عن ذلك (ديك الجن الحمصي) في قوله:

وفي الفرات فداء السبط قد تركت * آشلاؤنا في الوغي لحما على وضم"**

وأشار (الصنوبري) إلى موقعة ألطف واستشهاد الحسين بن علي في قوله:

ألم يكن منعه الماء *** كان شيئاً نكيراً

يا من يذود حسيناً *** عن الفرات فجورا

تذود عنه حسيناً *** بغياً وتسقى العيرا

غدا تطور بحوض *** النبي لا أن تطورا[١]

وقوله أيضا:

جاد قبراً بكربلاء رشاش *** الغيث ما اسطاعت الغيوث رشاشا[٢]

وقول (كشاجم):

وكأنما ضن الحسين بعرضه *** يوم التفرق ضنه بسحابه[٣]

وأيضاً قول (دعبل بن علي الخزاعي) في تائيته الشهيرة مخاطبا (فاطمة رضي الله عنها):

أفاطم لو خلت الحسين مجدلا *** وقد مات عطشانا بشط فرات

إذن للطمت الخد فاطم عنده *** وأجريت دمع العين في الوجنات[٤]

ويروي لنا أبو الفرج الأصفهاني في كتابه مقاتل الطالبيين ما يشيب الولدان من حوار الحسين مع شمر بن ذي الجوشن الضبابي، حيث يقول: " وجعل الحسين يطلب الماء، وشمر – لعنه الله –: يقول له: والله لا ترده أو ترد النار، فقال له رجل: ألا ترى

(١) الصنوبري: ديوانه، ص ٩٥، ٩٩.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٢٠.
(٣) كشاجم: ديوانه، ص ١٨.
(٤) د/ عبل بن علي الخزاعي: ديوانه، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٢ م، ص١٣٥.

إلى الفرات يا حسين كأنه بطون. الحيات، والله لا تذوقه أو تموت عطشا، فقال له الحسين: اللهم أمته عطشا. قال: والله لقد كان هذا الرجل يقول: اسقوني ماء، فيؤتى بماء، فيشرب يخرج من فيه، وهو يقول اسقوني قتلني: العطش، فلم يزل كذلك حتى مات.

قال أبو مخنف: فحدثني سليمان بن أبي راشد عن حميد بن مسلم، قال: لما اشتد العطش على: الحسين دعا أخاه العباس بن علي، فبعثه في ثلاثين راكبا وثلاثين راجلا، وبعث معه بعشرين قربة، فجاءوا حتى دنوا من الماء فاستقدم أمامهم نافع بن هلال الجملي، فقال له عمرو بن الحجاج: من الرجل ؟ قال: نافع بن هلال، قال: مرحبا بك يا أخي ما جاء بك ؟ قال: جئنا لنشرب من هذا الماء: الذي حلأتمونا عنه، قال: اشرب، قال: لا والله لا أشرب منه قطرة والحسين عطشان. فقال له. عمرو: لا سبيل إلى ما أردتم، إنما وضعونا بهذا المكان لنمنعكم من الماء، فلما دنا منه أصحابه: قال للرجالة املأوا قربكم، فشدت الرجالة فدخلت الشريعة، فملأوا قربهم، ثم خرجوا ونازعهم عمرو بن الحجاج وأصحابه، فحمل عليهم العباس بن علي، ونافع بن هلال الجملي جميعا، فكشفوه، ثم انصرفوا إلى رحالهم، وقالوا للرجالة: انصرفوا فجاء أصحاب الحسين بالقرب حتى أدخلوها عليه[١].

- الموقف الثاني هو الاستسقاء بالخلفاء العباسيين، وذلك بما أكدته المصادر من ضرورة الاستسقاء بجدهم العباس بن عبد المطلب، فنجد (البحتري) في مدح (المتوكل) قال:

لما تعبد محل الأرض واحتبست	***	عنا السحائب حتى ما نرجيها
وقمت مستسقيا للمسلمين جرت	***	غر الغمام وحلت من عزالبها
فلا غمامة إلا أنهل وابلها	***	ولا قرارة إلا سال واديها[٢]

وقد روى حادثة الاستسقاء بالعباس بن عبد المطلب كل من الجاحظ وابن قتيبة، يقول الجاحظ عن عمر بن الخطاب: "ولما صعد المنبر قابضاً على يد العباس يوم الاستسقاء، ولم يزد على الدعاء والاستغفار، فقيل له: إنك لم تستسق وإنما كنت تستغفر. قال: قد استسقيت بمجاديع السماء[٣]، ذهبت إلى قوله: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارً)[٤].

وأورد ابن قتيبة في عيون الأخبار نص دعاء العباس يوم الاستسقاء حيث يقول: " روى الكلبي عن أبي صالح أن العباس قال يوم استسقى عمر عليه: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة، وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة، فاسقنا الغيث، فأرخت السماء شآبيب مثل الجبال بديمة مطبقة[٥].

المطلب الثاني

العلم

على الرغم من قدم العصر العباسي وحياة البادية، إلا أنه شهد تقدماً واضحاً في الناحية العلمية، واتخذ الشعراء العباسيين النظريات والبراهين العلمية ووضعوها في شعرهم لتعطي لمسة جمالية للوحاتهم الفنية.

(١) أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، مصر، ٣، ٢٠م، ١ / ١١٩، ١١٧.
(٢) البحتري: ديوانه، ص ٢٤١١، ٢٤١٢.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيقي عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، طاه، ه ١٩٨ م، ٣/٢٧٩.
(٤) سورة نوح: آية (١٠، ١١).
(٥) ابن قتيبة: عيون الأخبار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ٢٠٠٣، ٢٧٩/٢.

الفرع الأول

نظرية الهيولي

أول من استخدم هذه النظرية الفيلسوف اليوناني أمبادوفليس، وكان يطلق عليها نظرية الجذور، وفيما بعد أطلق عليها أرسطو طاليس نظرية العناصر الأربعة، ويقصد بالهيولي عناصر الكون الأربعة (الماء والهواء والنار والتراب).

ووردت هذه النظرية عند (كشاجم) في قوله:

كأنما السبعة الأفلاك محدقة *** بالنار والماء والأرضين والريح[١]

وعقب (الدكتور عبد العال عبد الرحمن) على هذه النظرية قائلاً: "أمبادوقليس عناصر أربعة (النار، والهواء، والتراب، والماء) وهو يتصور هذه العناصر تصوراً يخلع عليها صفة الحياة والألوهية، ويسميها باسماء الآلهة "، فزيوس الساطع يرمز للنار، وهيرا حاملة الحياة ترمز للأرض أو التراب، وأيدونيوس يرمز للهواء، ونستينس التي فاضت دموعها فتكونت ينابيع الرطوبة للمخلوقات (ترمز للماء) وهذه العناصر أزلية غير مخلوقة لم تكن ثم كانت ولن تكون بل هي الحقائق الأولى.[٢]

أما عن سر حركة هذه العناصر الأربعة وعلاقتها بحركة الكون فيرى أمبادوقليس" أن مصدر الحركة مبدآن هما سبب اتصال العناصر وانفصالها. أحدهما قوة التوحيد وهي المحبة، والأخرى سبب الانفصال وهي الكراهية. ويري بعض الباحثين أن في أقوال أمبادوقليس ما يؤدي إلى اعتبار العناصر ستة بإضافة القوتين الآخرتين إليها، ولكن الواقع أن المحبة والكراهية لا يمكن اعتبارهما عناصر تضاف إلى ما تقدم من الجواهر الأربعة، بل هما مبدآن أو علتان فاعلتان في الوجود فحسب.[٣]

وبهذا تبين لنا أن هذه العناصر تمثل العلة المادية، وهي أحد علل الفلسفة اليونانية (العلة المادية، والعلة الفاعلة، والعلة الصورية، والعلة الغائية).

وقد ذكر(عرقلة الكلبي) اثنين منهما في قوله:

عبرت علي دار الصلاح وقد خلت *** من القمر الوضاح والمنهل العذب

فواللة لولا سرعة مثل عزمه *** لغرقها طرفي واحرقها قلبي[٤]

وأيضاً قد ذكر (جحظة البرمكي) اثنين من هذة العناصر في قوله:

تسرح العين منه والقلب في الا *** ل وفي الماء والسنا والبهاء

ليس فيه للنار والارض حظ *** هو من جوهري هواء وماء[٥]

(١) كشاجم: ديوانه، ص ٨١.
(٢) عبد العال عبد الرحمن: مشكلة التوفيق والاصالة لدي فلاسفة اليونان من أمبادوقليمي حتي أفلوطين، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الاسكندرية،ط١، ٢٠٠٤م،ص٢٥ ، ٢٦.
(٣) المرجع السابق: ص٢٦.
(٤) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص١٤.
(٥) جحظة البرمكي، ديوانه، ص٣١.

الفرع الثاني

ظاهرة السراب

يقصد بتلك الظاهرة عملية انكسار الضوء على الأسطح اللامعة وقت تعامد الشمس عليها، فيحدث خداع بصري ويظن الرائي أنها ماء، وقد استخدم الشعراء العباسيين هذه الظاهرة في لوحاتهم الفنية للمائيات.

نجد (الوأواء الدمشقي) يشبه وعود محبوبته التي لم تتحقق بالسراب، فقال:

وغناء يكاد أن يسكن الماء *** لتغريده عن الاضطراب

من فتاة وصالها لي صدود *** ومواعيدها كلمع السراب[١]

واستخدمها (بشار بن برد) في مدح (داود بن حاتم)، فقال:

غول البلاد إذا المقيل تحرقت *** آرامه وجرت بماء سرابه[٢]

ونرى أن بشار قد ربط بين شدة الحرارة وظاهرة السراب، كما ربطت الآية القرآنية بين شدة الحرارة والظمأ والسراب، في قوله تعالى: (الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ).[٣]

الفرع الثالث

المد والجذر

ظاهرة المد والجذر من الظواهر البحرية المرتبطة بحركة الكواكب والنجوم، وقد اكتشفها القدماء ولاحظوا أثرها في البحار والخلجان والمسطحات المائية ومصبات الأنهار، واكتشف سكان السواحل الأوروبية أن هناك علاقة وثيقة بين ظاهرة المد والجذر وشكل القمر، فلاحظوا أن المد يحدث عندما يكون القمر محاقاً أو بدراً.[٤]

وقد استخدم (أبو الطيب المتنبي) الجزر كصورة فنية دالة على شدة حزن (سيف الدولة الحمداني) بسبب وفاة ابن عمه (أبي وائل تغلب بن داود)، فقال:

إن جزعنا له فلاعجب *** ذا الجزر في البحر غير معهود[٥]

وذكر (علي بن الجهم) ظاهرة المد والجزر في وصفه للبركة المحتفرة في القصر الهاروني، فقال:

للموج فيها تلاطم عجب *** والجزر والمد في مشاربها[٦]

(١) الوأواء الدمشقي: ديوانه، ص ١٢.
(٢) بشار بن برد: ديوانه ٢٨٢/١،والغول الداهية العظيمة تشبيها، وأصله السعلاة المعروفة في خرافات العرب، والتحرق والاشتعال لشدة الحرارة، والآلام جمع ألم (بكسر الهمزة وفتح الراء) حجارة كان تنصب لتدل السائر على الطريق.
(٣) سورة النور: الآية (٣٩).
(٤) د/ حسن أبو العينين: الأقيانو غرافيا (دراسات في جغرافية البحار والمحيطات)،مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ط٢،١٩٧٩م، ص ٢١٧، ٢١٨.
(٥) المتنبي: ديوانه، ٣/ ١٢٩.
(٦) علي بن الجهم: ديوانه، ص ٨٠.

المطلب الثالث

الأمثال العربية

اهتم الشعراء العباسيين بالأمثال العربية والحكم واتخذوا منهما صورا فنية، يقول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني: " كانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب، ويده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض[١].

بينما سبستيان فرانك[٢] يرى أن المثل الشعبي لا يتذكره الإنسان إلا بعد مروره بتجربة فاشلة، فالإنسان بعد أن يتدخل فيما لا يعنيه ويسمع ما لا يرضيه، يتذكر المثل القائل " من تدخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه ".

فنجد (بشار بن برد) متأثراً بالأمثال العربية في قوله:

مواعيد حماد سماء مخلية *** تكشف عن رعد ولكن ستبرق

إذا جئته يوما أحال على غد *** كما وعد الكمون من ليس يصدق[٣]

فهذه الصورة الفنية مستوحاه من قول العرب " أخلف من شرب الكمون". ذكر العبدري أن هذا المثل ذكر في المستقصي وفي مجمع الأمثال، وذكره أيضا القاضي أبو بكر عبد الله بن محمد بن طاهر في كتابه لطائف المعارف، فقال: مواعيد الكمون مثل للمواعيد الكاذبة، لأن الكمون لا يسقى بل يوعد بالسقى فيقال له غدا نسقيك وبعد غد نكفيك فهو ينمو بالتمنية على المواعيد الكاذبة[٤].

وأيضاً قول (أبي الطيب المتنبي):

وإني لترويني من الماء نبغة *** وأصبر عنه مثل ما تصبر الربد[٥]

وهذه الصورة الفنية مستوحاه من قول العرب " أروي من النعام " وقد ذكره العبدري في تمثال الأمثال، فقد ذكر أن " النغبة – بضم النون وإسكان الغين المعجمة – هي الجرعة، وقد تفتح نونها، والربد بضم الراء وسكون الباء الموحدة، وبعدها دال مهملة جمع ربداء، وهي النعامة التي لونها إلى الغبرة، وفي معنى النعامة أيضا الضب، وقد ذكره الزمخشري، والميداني، وذكر أيضا " أروي من الحوت... [٦]

أما الصورة الفنية في قول (الوأواء الدمشقي):

وسماء العيون إذ ذاك تسقي *** بسحاب الجفون روض الخدود

لم أجد ما به أجود بدمعي *** غير روحي فجدت بالموجود[٧]

(١) القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص ٢٤.
(٢) د/ نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار المعارف، مصر، ص ٢٢٢.
(٣) بشار بن برد: ديوانه، ٤/ ١١٨، ١١٩، وفيه ماليس بدلا من " من ليس.
(٤) أبو المحاسن محمد بن علي العبدري (ت ٨٢٧ هـ): تمثال الأمثال، حققه وقدم له د/ أسعد ذبيان، دار المسيرة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢ م، ص ١٥٣ ؛ ١٥٤.
(٥) المتنبي: ديوانه، ص.
(٦) العبدري: تمثال الامثال، ص ١٧.
(٧) الوأواء الدمشقي: ديوانه، ص ٨٢.

مستوحاه من المثل الحواري، سئل رجل هل الجود من العود أم من الموجود ؟ فقال: الجود من الموجود، إذا لم يكن موجود فمن أين يجود العود ؟!!

وقد تأثر (كشاجم) بالأمثال العربية في قوله:

يبكي ببحر من التدبير موقعه *** في حيث حل ولكن دمعه طلبه

وقيل كن جار بحر أو فنا ملك *** وأنت جاري ومثوانا على دجلة[١]

فقد ورد في تمثال الأمثال "جاور ملكا أو بحرا" قال في المستقصي يضرب في التماس الخصب والسعة، ولم يزد عليه. وقال الميداني: يعني أن الغنى يوجد عندهما. يضرب في التماس الخصب والسعة، ووجه المشابهة بينهما أن للبحر منافع كثيرة وتخرج منه الجواهر واللآليء ومع ذلك تهابه الناس، وكذلك الملك يسوس الناس ويعيشون في ظله ولكنهم يهابونه.

المطلب الرابع

العقيدة

العقيدة من أهم مظاهر الحياة الفكرية التي أثرت في الشرق العربي والإسلامي عامة، وفي العصر العباسي خاصة، فالدين يمثل المحور الرئيسي لأفكارنا، ولكن الغاية العقائدية ليست هدفاً للشعر، فيقول القاضي الجرجاني: " فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعري واضرابهما ممن تناول رسول الله وعاب من أصحابه بكما خرساً، وبكاء مفحمين، ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر[٢] .

الفرع الاول

القرآن الكريم

استمد الشعراء العباسيين من القرآن الكريم صوراً للتعبير عن مقصدهم، فقال (بشار بن برد):

إذ نلتقي حلقاً ونسترق الهوى *** سرق العفاريت السماع مذودا

فكاننا عسل بماء سحابة *** بعد التفرغ بالأناة أعيدا[٣]

متخذاً ذلك من قوله تعالى: " نسترق الهوى سرق العفاريت السماع " مأخوذ من قوله تعالى في سورة الصافات:(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) [٤]

وأيضاً قوله تعالى في سورة الحجر: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ(١٨)) [٥]

أما (ابن سنان الخفاجي) فقال:

---

(٢) القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة ومكتبة الحلبي، ١٩٦٦ م، ص ٦٤..
(٣) بشار بن برد: ديوانه، ص ٢/ ٢٥٩.
(٤) سورة الصافات: آيات من ٩: ١٠.
(٥) سورة الحجر: آيات من ١٩: ١٨.

لانوا وفيهم للعدى قسوة *** والغيث مرجو ومرهوب[١]

متأثراً بقوله تعالى في سورة التوبة: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [٢].
وكذلك من قوله تعالى في سورة الروم: (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [٣]
أما قول (عبد الله بن المعتز) :

يا بساتين نهر عيسى لقد *** افتنتنا نموزجات الجنان

إذ نلتقي حلقاً ونسترق الهوى *** سرق العفاريت السماع مذودا

فكاننا عسل بماء سحابة *** بعد التفرغ بالأناة أعيدا[٤]

وأيضاً قول (كشاجم):

لنا على دجلة نخل منتحل.. *** نسلفه ماء ويقضينا عسل

ذو قدر فلا علا ولاسفل *** يسقى بماء وهو شتى في الأكل

مازال في الأفياء يغذي ويقل *** يشمس أحياناً وأحياناً يطل[٥]

قد اعتمدا على قوله تعالى في سورة الأنعام: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [٦]
وأيضاً قوله تعالى في سورة الرعد: وفي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون)[٧]
أما (ابن المعتز) في قوله:

قالوا أضر بنا السحاب بوكفه *** لما رأوه لعبرتي يحكي

لا تعجبوا مما ترون فإنما *** هذي السماء لرحمتي تبكي[٨]

(١) ابن سنان: ديوانه، ص ٣٦.
(٢) سورة التوبة: آية (١٢٨).
(٣) سورة الروم: آية (٢٤).
(٤) ابن المعتز: ديوانه، ص ٢/ ٣١٤.
(٥) كشاجم: ديوانه، ص ٣١٧، ٣١٨.
(٦) سورة الأنعام: آية (١٤١).
(٧) سورة الرعد: آية (٤).
(٨) ابن المعتز: ديوانه، ص ٢/ ١٩٩.

كان مستمداً من قوله تعالى في سورة الدخان: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)[١] وقد أسهم قوله عز من قائل في سورة البقرة: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[٢]

وأيضاً قول (الصنوبري):

ألين ويقسو مثل ما لنت كما *** قست عن قبول الماء ملمومة الصخر[٣]

الفرع الثاني

الحديث النبوي الشريف

اعتمد الشعراء العباسيين على الأحاديث النبوية الشريفة في رسم صوراً فنية في لوحاتهم المائية، فنجد (كشاجم) وصف محبوبته قائلاً:

روح من الماء في جسم من الصفر *** مؤلف بلطيف الحسن والنظر

تنشا له حركات في اسافله *** كانها حركات الماء في الشجر

تقضي به الخمس في وقت الوجوب وإن *** غطى على الشمس ستر الغيم والمطر[٤]

فقد استخدم تقضي به الخمس كصورة فنية للدلالة على الصلاة وما بها من طهارة وسمو، وذلك تأثراً بحديث رسول الله صلي الله عليه وسلم، فقد روى " عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: أرايتم لو أن نهرا بباب أحد كان يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقي من درنه شيء؟

قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا والحديث صحيح رواه البخاري[٥] ومسلم[٦]

وفي وصف السحاب قال (أبو بكر محمد الخالدي):

وسحاب يجر في الارض ذيلي *** مطرف زره على الجو زرا

برقة لمحة، ولكن له رع *** د بطئ يكسو المسامع وقرا

كخلي منافق للذي يهوا *** ه يبكي جهرا ويضحك سرا[٧]

(١) سورة الدخان: آية (٢٩).
(٢) سورة الدخان: آية (٢٩).
(٣) سورة البقرة: آية (٧٤).
(٤) كشاجم: ديوانه، ص ١٩٧، ١٩٨.
(٥) الحافظ بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، طبعة دار الحديث، القاهرة، ط، ٢/ ١٠، رقم الحديث (٥٢٨).
(٦) الإمام النووي: شرح صحيح مسلم، طبعة دار الحديث، القاهرة، ط ١، ص٢/ ٨٢ ١، رقم الحديث (٦٦٧).
(٧) الخالديان: ديوانهما، ص ٥٤.

وقد استمد صورته الفنية وهي السحاب للدلالة على النفاق، من حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم "أن النبي صلي الله عليه وسلم" قال: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر " رواه البخاري[١] ومسلم[٢].

الفرع الثالث

القصص القرآني

اعتمد الشاعر العباسي على القصص القرآني في إلقاء الضوء على موضوعاً أو جانباً من القصة وترك الخيال للمتلقي في استكمال باقي الجوانب.

فنجد (علي بن الجهم) اتخذ من قصة طوفان نوح عليه السلام وسفينته صورة فنية، حيث قال:

واتخذ الفلك بأمر ربه	***	حتى نجا بنفسه وحزبه
وأقبل الطوفان ماء طاغيا	***	فلم يدع في الأرض خلقا باقيا
غير الذين اعتصموا في الفلك	***	فسلموا من غمرات الهلك
وكان هذا كله في آب	***	قبل انتصاف الشهر في الحساب
فعزموا عند اقتراب المعمعة	***	أن يركبوا في الفلك وأن ينجوا مع[٣]

أيضاً (علي بن الجهم) اتخذ من قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقصة حفر بئر زمزم، صوراً فنية أخرى في قصيدته المحبرة في التاريخ، حيث قال:

وأسكنت في البلد الأمين	***	وشب إسماعيل في الحجون
وكان يوما عنده جبريل	***	وعنده النبي إسماعيل
وهو صغير فاشتكى الظماء	***	فخرجت هاجر تبغي الماء
فهمز الأرض فجاشت جمجما[٤]	***	تفور من همزته انهرما
وأقبلت هاجر لما يئست	***	فراعها ما عاينت فأبلست

(١) الحافظ بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨٤/١٠.
(٢) الإمام النووي: شرح صحيح مسلم، ٥٩/١
(٣) علي بن الجهم: ديوانة، ص ٢٣١.
(٤) ذكر محقق ديوان ابن الجهم أنه هكذا في الأصل، ولعل الصواب زمزما

وجعلت تبني له الصفائحا *** لو تركته كان ماء سائحا[١]

كما أن هذه الصورة مستمدة من قوله تعالى في سورة إبراهيم: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴿٣٧﴾)[٢]

وأيضاً من قوله تعالى في سورة المائدة: (وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾)[٣]

الخاتمة:

نظراً لاختلاف البيئات والثقافات تطورت نظرة الشاعر العربي إلى الطبيعة أو البيئة التي يعيش فيها، وأصبح يتأمل ويصف كل ما حوله حسب رؤيته الخاصة، فالطبيعة أصبحت مصدر إلهام الشعراء، يأوون إليها متأملين ظواهر الحياة والكون، ويفزعون إليها مستلهمين وحي الشعر، والطبيعة أوسع منابع الكون غنى، فهي ملهمة الفنان، ومصدر الوحي، ومنبع الإلهام والطبيعة الجميلة بملامحها الرائقة، ومناظرها الرائعة، تهوى إليها أفئدة الناس مهما تفاوتت بيئاتهم، وتباينت ثقافتهم والإنسان بفطرته كلف بالطبيعة، مقدس جمالها، يفزع إليها في أشجانه ليجد في أحضانها سلوته وعزاءه، ويهرع إليها في مسراته.

وتضم المصادر المادية الطبيعة بكل ما فيها سواء أكانت هذه الطبيعة حية كالإنسان والحيوان والنبات، أو جامدة كالأرض والسماء والجبال وغيرها من الموجودات المفتقرة عنصر الحياة، أما المصادر المعنوية للطبيعة فتشمل العقائد كالقرآن الكريم والمسائل الفقهية والقصص القرآني والحديث النبوي، والعلم وظواهره، والأمثال العربية والحكم، والموروثات التاريخية، وجدير بالذكر أن هذه الموجودات في أغلب الأحيان تشترك مع بعضها البعض لتكوين الصورة الواضحة.

وإذا كان الواقع المادي يمثل جانبا من جوانب الروافد أو المصادر التي يستمد منها الشاعر صوره، فلاشك أن الفكر المجرد أو غير المادي يمثل جانباً أكبر وأعظم خطرا من الجانب المادي. لأن أيدلوجية الإنسان هي القوة الدافعة أو المحركة له.

فنجد أن الشاعر العربي القديم قد أدرج كل ما يحيط به من كائنات واستلهم كل ما يعرفه من موروثات وأحاديث وأمثال وحكم، ليكون لنا في النهاية صورة فنية مليئة بالعبارت الجمالية التي تصف ما يقصده وتدل على مدى تقدمه آنذاك.

قائمة المراجع

القرآن الكريم

الدواوين الشعرية

ابري سناري: ديوانه . جحظة البرمكي، ديوانه . عرقلة الكلبي: ديوانه,

ابن الرومي: ديوانه. الخالديان: ديوانهما . كشاجم: ديوانه .

ابن المعتز: ديوانه، ١٥٢/٢٠. السري الرفاء: ديوانه. المتنبي: ديوانه .

ابن سنان: ديوانه . الصنوبري: ديوانه . عنترة بن شداد: ديوانه، قدم له وعلق

أبو نواس:ديوانه . عبدالصمد بن المعذل: ديوانه. حواشيه سيف الدين الكاتب وأحمد عصام

(١) علي بن الجهم: ديوانه، ص ؛ ٢٣.
(٢) سورة إبراهيم: الآيات من (٣٥ : ٣٧)، وسورة البقرة: آية (١٢٦).
(٣) سورة المائدة: الآية (٦).

البحترى: ديوانه . عبدالله بن المبارك: ديوانه . الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨١م
بشار بن برد: ديوانه . العبدري: تمثال الامثال .

المراجع المتخصصة :

ابن قتيبة: عيون الأخبار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ٢٠٠٣، ٢٧٩/٢.
أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، مصر، ٣، ٢٠م.
أبو المحاسن محمد بن علي العبدري (ت ٨٢٧ هـ): تمثال الأمثال، حققه وقدم له د/ أسعد ذبيان، دار المسيرة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢م.
الإمام النووي: شرح صحيح مسلم، طبعة دار الحديث، القاهرة، ط ١، ص٢/ ٨٢ ١، رقم الحديث (٦٦٧).
الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيقي عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، طاه، هـ ١٩٨ م، ٣/٢٧٩.
الحافظ بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، طبعة دار الحديث، القاهرة، ط، ٢/ ١٠، رقم الحديث (٥٢٨).
حسن أبو العينين:الأقيانو غرافيا (دراسات في جغرافية البحار والمحيطات)، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ط٢، ١٩٧٩م
عبد العال عبد الرحمن: مشكلة التوفيق والاصالة لدي فلاسفة اليونان من أمبادوقليمي حتي أفلوطين، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الاسكندرية،ط١، ٢٠٠٤م.
عبل بن علي الخزاعي: ديوانه، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م
علي أبو زيد: فنيات التصوير في شعر الصنوبري.
عمر الدقاق: الصورة الفنية، مجلة بحوث حلب، العدد التاسع، ١٩٨٦م.
القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة ومكتبة الحلبي، ١٩٦٦م.
نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار المعارف، مصر.
هنري برجسون: الضحك، ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.